جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

مقوّمات النّقد الحضاري عند أدونيس ومستلزمات التحوّل. (قراءة استنباطية في: الثّابت والمتحوّل)

الدكتور / حكيم دهيمي
أستاذ النقد المشارك - قسم اللغة العربية- كلية العلوم والآداب - جامعة الجوف - المملكة العربية السعودية.

العدد الرابع والعشرون
للعام ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م
الجزء الرابع
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٠م
الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

مقوّمات النّقد الحضاري عند أدونيس ومستلزمات التحوّل.
(قراءة استنباطية في: الثّابت والمتحوّل)

حكيم دهيمي

قسم النقد - قسم اللغة العربية- كلية العلوم والآداب – جامعة الجوف– المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: hakim.dehimi@yahoo.com

الملخص

يرصد هذا البحث الأسس التي قام عليها نقد أدونيس للموروث الحضاري العربي في دراسته العلمية: الثّابت والمتحوّل، بحث في الإبداع والإتباع عند العرب، و يهدف –أيضا– إلى تحليل مستلزمات التحوّل في منظوره، ويقف على أهمّ مصطلحات الخطاب النقدي لديه.

الكلمات المفتاحية: النقد الحضاري ، أدونيس ، الثابت والمتحول ، قراءة استنباطية ، التحول ، الثابت .

The fundamentals of cultural criticism at Adonis and the requirements of transformation. (A deductive reading in: Constant and Transformer)

Hakim Dhimi
Department of Cash - Department of Arabic Language - College of Science and Arts - Al-Jouf University - Kingdom of Saudi Arabia
Email: hakim.dehimi@yahoo.com

Abstract

This research aims to study the foundations of the criticism of Adonis for Arab civilization through his famous study: the constant and variable search in creation and dependence among Arabs.

This research is also interested by the analysis of the obligations of change according to the Adonis vision on the one hand, and the terminology used in his speech on the other hand.

Keywords: civilization criticism, Adonis, constant and transformed, deductive reading, transformation, fixed.

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

الحديث عن النّقد الحضاري في ظلّ الرّاهن العربي الذي تطبعه حركة جماهيرية ثائرة، لم يسبق لها نظير على الأقل في التاريخ المعاصر، و أثر ذلك على مسار التغيّرات الاجتماعية والسياسية والثّقافية و"الجيوستراتيجية" للمنطقة العربية، وتزامن ذلك كلّه مع طبيعة التوجّه الثقافي الغربي وإفرازات الفكر العولمي ، يعد –في الحقيقة– أكثر من ضرورة لإيجاد زوايا تموضع جديدة تمكنّ فهم المشكلة بكل أبعادها، وتفتّح الوعي على كل التدّاعيات المحتملة

لتراكمات الأزمات المتتابعة، التي يعيشها الإنسان العربي على أصعدة شتى: دينية، وسياسية وثقافية، و اجتماعية.

يعدّ أدونيس من الروّاد الذين أعادوا قراءة الفكر الحضاري العربي الإسلامي، في سيّاق المنهجية الغربية بشكل نقديّ، يقوم أساسا على تسليط الضوء على زوايا العتمة في تاريخنا الحضاري، وعلى تثوير المسكوت عنه من الأسئلة، وإخراجها من سبات القرون العميق إلى دائرة النور، لتنبجس وتزهر في أرض الواقع المتأزّم.

جلّ ما كتبه أدونيس في سياق الدراسات الفكرية ، والحداثة، ظلّ ينطلق من وعيه بالأسباب العميقة بأزمة الفكر في التاريخ الفكري العربي والديني، والحضاري، ما جعل بحثه في مستلزمات التحوّل يشكّل روح نقده الأدبي والفكري الذي يتغيّا ترميم الذات المتشرذمة بين التراث من جهة والمعاصرة من جهة أخرى، قبل أن يهدف إلى تأسيس أي شكل من أشكال الممارسة النقدية .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

إنّ مقوّمات النّقد عند أدونيس تتشكّل تزامنا مع دحضه لكل السّرديات العربية الكبرى، التي أنجبت عقلا يميل إلى الاسترجاعية، وينأى عن الإبداع والانعتاق من وصاية الموروث من ناحية، ويعجزعن الإضافة إلى منجزات الآخرمن ناحية أخرى.

يظلّ هذا الآخر يتموقع في مقدمة الركب، وينفصل عن إمكانات العقل العربي بمسافة قرون من التفكير والجهد في صياغة إجابات عن أسئلة الإنسان المعاصر، وبلورة المفاهيم الجديدة تقتضيها حمولة الرّاهن الثقافية، المنفتحة على إشكالات متعدّدة: الديمقراطية، المجتمع المدني، الحريات ، النسائية.. وغيرها.

في ظلّ هذا السيّاق يأتي بحثي: : "مقوّمات النّقد الحضاري عند أدونيس ومستلزمات التحوّل.

-قراءة استنباطية في: الثّابت والمتحوّل بحث في الإبداع والإتباع عند العرب-"

ليقف على أهمّ مقوّمات النّقد الحضاري عند أدونيس وعلى مستلزمات التحوّل، انطلاقا من مجموعة مقولاته المركزية التي ضمنها في نصوصه الشعرية وفي دراسته الفكرية:

"الثّابت والمتحوّل بحث في الإبداع والإتباع عند العرب" توصيفا لوضعية التّيه والركود، وتعلّقا بأفق الفكر السؤول الجاد، الذي يؤسّس للحقيقة، ويمهدّ السبل لكل ابتكار مرتجى على الأصعدة المختلفة(الثقافة، المعرفة، الحياة المدنية..)، كما يسعى بحثي إلى رصد أهمّ المصطلحات الموظّفة في نقد أدونيس وعلاقة ذلك كلّه بمرجعيته النّقدية، وفق منهج

تحليلي، يتوغّل في دلالة المصطلح المرتبط بمتصوّرات أدونيس الثقافيـــة و الأدبية والنقدية، ويقف على مرفأ أدواته الفكرية.

أدونيس ومعركة المفاهيم:

منذ كتاباته المبكرة، رفع الشاعر، والمفكر الإنساني أدونيس لـــواء التغيير والاستكشاف، من أجل إعادة صياغة المفاهيم، صياغة جديدة، تتّفق وصوت المنطق والضّمير الإنساني ، المفطور على الحريّة والعدل والحـــقّ، ومنذ الوهلة الأولى التي تشبّع فيها وعيه بفكر وثقافة الحضارة الإســـلامية، وانفتاحه على أهمّ محطّات التاريخ العربي والإسلامي، تبلورت لديه قناعـــة أساسية، كانت بمثابة الطّاقة التي أحدثت الوهج الذي عرفته مسيرة الشـــعر والتفكير والبحث لديه.

إلا أنّ بحثه في الفكر الثّبـــوتي والتحـــوّلي، فـــي ســـياق أطروحتـــه للدكتوراه: : "الثّابت والمتحوّل بحث في الإبداع والإتباع عند العرب" التـــي اختار لها عنوانا دقيقا، يقوم على ثنائية ضدّية، تبرز عبر مجاليهـــا كل خصائص التفكير العربي الإسلامي، وموقفه من العالم الذي من حولـــه، يعدّ- في تقديري- المنعرج الحاسم في مسيرة تفكيره، وفي مسلك تجربته الشّعرية، و إن كان الخطّ الأساسي الذي ميّز تجربته الشّعرية، ظلّ واضحا دون التواءات، أو تردّد في التمسّك بمنظومة المنطلقات والمبادئ الإنسانية، التي آمن بها ، واتّخذ منها بوصلته في مقاربة قضـــايا مجتمعـــه العربـــي، (المحليّة) وقضايا الإنسان الكوني (العالمية).

يتمّ-هنا- تسليط النّظر على "الثّابت والمتحوّل"، لأنّه يمثّل عصـــارة الجهد الأدونيسي(نسبة إلى أدونيس) في فحص أفق التصوّر، الذي يصدر

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

عنه العربي في أقل و أعمق أشيائه، لفهم طبيعة حركته في الواقع، واستشفاف تفاعلاته مع الواقع الإنساني، وتحليل الخلفيات الثقافية والدينية، التي جعلته يتصيّر بهذا الكيف ، ويكون وفق الشكل الذي هو عليه، في تاريخه الحافل بالمتناقضات والمفاجآت، التي لا تحجب أمام البصيرة الواعية، المتفحّصة لمسار تطوّرالعقل العربي بمنظار الموضوعية، وبمنطق المكاشفة العلمية الجريئة، التي لا يسعها إلا وضع الأشياء في أسيقتها الطبيعية، بحسب ما يلزم أن تكونه في سياق الزمان والمكان.

ثمّ أنّه من ناحية أخرى، يبدو لي أنّ بحثا ودراسة من شاكلة "الثّابت والمتحوّل بحث في الإبداع والإتباع عند العرب"، يمكن أن تكون مرجعا أساسيا لفهم طبيعة المشروع الفكري الذي تبنّاه أدونيس، عبر مسيرته البحثية شعرا وكتابة لجمل من الاعتبارات، لعلّ أهمّها:

١-إنّ(الثابت و المتحوّل) يستوعب المنظومة المصطلحية، التي تؤطّر فكر أدونيس ، وتميّز رؤيته لواقع المسلمين اليوم، وتشكّل رؤياه الشّعرية، المستشرفة للحقيقة ولمستقبل الذات العربية، التي أنهكها التخلّف والعجز والوهم.

٢-إنّ دراسته، هذه، تكشف عن أساسيات نقده الحضاري والديني للموروث العربي الإسلامي، و سلوكياته في علاقته بمن حوله، وعن موقفه من قضايا الإنسان في العالم، وبتعبير دقيق عن الأطر المرجعية لعلاقته مع الآخر.

٣- إنّ دراسته، هذه، هي الإطار المحدّد لمنظومة المفاهيم والمقولات، التي بموجبها يمكن الولوج إلى عالم أدونيس الفكري والفني

ولا سيّما الشّعري ، باعتبار أنّه لا يمكن الفصل بين تجربة أدونيس الشعرية والمضمون الإيديولوجي والثقافي، الذي يمثّل حمولة مواقفه الشعرية، ومساره الإبداعي، الحافل بالتّوصيفات الجريئة ، والفهم البنيوي لمعضلات الإنسان العربي عبر التاريخ.

٤- الثّابت والمتحوّل، يمثل مدار الصراع بين مفهومين متضادين، في ضوئيهما يتحدّد الاختيار، وتبرزصورة الواقع الإسلامي بوضوح، رغم ما يلحق هذا الواقع من ضبابية، ووضعيات إشكالية، يصعب أحيانا استيعاب ما يحدث في أرجائه، ومعرفة البنية العميقة التي يتشكّل بموجبها.

إذن، مرة أخرى، يبدو لي أنّ الرّجوع إلى "الثابت والمتحوّل"، يسهلّ مهمّة الإحاطة بفكر وشعرية النّص الشّعري لدى أدونيس، وتقفّي آثاره نحو طبيعة الإشكال، الذي يطرحه، والظفر بالأجوبة، التي تستوجبها الأسئلة الإشكالية، التي يقوم عليها فكره السؤول.

آثرت في بحثي هذا- بموجب المتاح المنهجي المفروض- أن اختار أفكارا أساسية محدّدة ، وعيا منّي بعلاقتها المباشرة بطبيعة فكرة الموضوع المطروح، من ناحية، وبحيويّتها وقيمتها في سيّاق الحديث عن أسس النّقد الحضاري عند أدونيس، وهي على النّحو الآتي:

١- أساسيات النقد الحضاري في مشروع أدونيس النقدي.

٢- مستلزمات التحّول.

٣- طبيعة الأداة المصطلحية الموظّفة

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أوّلا- أساسيات النّقد الحضاري في مشروع أدونيس النّقدي:

-١- التّعرية وفضح النّسق الثّقافي الدّيني:

إن المتتبّع لتجربة أدونيس الشّعرية والفكرية، فيما أنتجه من نصوص شعرية ونقدية، يلحظ أنّ الأسلوب النقدي الذي سلكه يقوم، أساسا، على كشف الأوراق التي تراهن بها الذّهنية السلفية، التقليدية في فهم الواقع، والتطلّع إلى المستقبل، لأنّ النقد الحضاري« بتركيزه على الظواهر الفكرية و الأدبية والفنية، يرمي إلى كشف التناقضات ليس في الوعي فقط، بل في كلّ التجسيدات والبنى والعلاقات، التي تشكّل القاعدة المادية للحضارة الأبوية» (١) ولا ريب أنّ هذا المنحى يفيد في رسم معالم صورة الواقع العربي الإسلامي، قصد تحديد ما لحقها من ندوب العصور الغابرة، والوقوف على ما هو متاح من إمكانات الترميم، التي من شأنها أن تعيد الألق المفقود في زوايا هذه الصورة، حتىّ تسهم في تقديم دلالة ايجابية عن طبيعة الإنسان العربي، في مسلك التاريخ الحضاري للشعوب، عسى الأجيال القادمة تتحرّر من عقدة النقص المتوارثة، فتستطيع أن تنمّي وتحرّر رصيد السلف على صعيد التفكير وتحديد الموقف الواعي من متغيرات ومستجدات العصر.

إن ّ ممارسة التّعرية من خلال كشف المسكوت عنه في تاريخ الثقافة والحضارة الإسلامية، يعدّ آلية فعالة في إعادة تسمية الأشياء بمسمياتها، ووضع كل مقولة ضمن سياقها الذي تتّصل به، لأنّ معرفة الحقيقة المرّة خير من الوهم المريح، ومعرفة طبيعة المرض الذي ينهش الجسد، هو أوّل طريق لبداية العلاج النافع، لذلك فإنّ ما اتّهم به شعر

أدونيس من تجاوز وتطاول على تاريخ الثقافة العربية، ثم ّما أتّهم به من ازدراء لمنظومة القيّم الإسلامية، ونصوص التراث، إنّما مردّه ،في تقديري، يعزى إلى خروج أدونيس عن وتيرة الدراسات والمقاربات التي، غالبا، ماتقول وتطرح ما يستلذّه اللاّوعي الجمعي العربي، وتستأنس به النفوس المهزومة، كما لو أنّ الأمر يتعلق بتفضيل سماع الصوت الذي يبرّر عجز الذات، والمنطق الذي يبرّر موقعها في مؤخرة قافلة العالم أكثر من التشبث باللغة الفاضحة، الناقدة ، الكاشفة عن مواضع الضّعف والخلل والقصور، التي تتحرك في أبعاده ، كما لو أنّ قدر الذات المنتكسة حضاريا تطمئن، دوما، إلى كل ّخطاب مخادع، يعزف عل أوتار الحماسة العمياء، والعاطفة الجياشة، التي تحترق في أوارها، الحقيقة المرّة.

إنّ الأمر يشبه ما تقوم به بعض النّخب المثقفة، في واقعنا الرّاهن من مداهنة ، وتغطية لأساليب الزّعامات السياسية في مجابهة الأحداث وتغيرات العالم الذي يعجّ بالحركة والتحوّل، غير آبهة بالشرطية التاريخية وبضرورات التعامل مع متطلبات الراهن و أسئلة المستقبل، وهي بهذا الحال تظلّ منغلقة حول نفسها في نفق الماضي، مكتفية به قدرا و أملا، مردّدة صوت التمجيد لإرث تليد، غافلة عن تحوّل العالم ، وتلاشي الحدود، وسقوط الحصون عصر معولم، ديدنه التغيّر المستمر والحركة الدؤوبة الواعية، التي تجعل من الرّاهن منطلقا لها ، حاملة بشاراتها عن الغد الآتي ووتتعلّق بالمستقبل، موطن الرّهان الأصيل.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

لذلك يبدو أنّ أدونيس منذ الوهلة الأولى قد اختار مسلكه في الكتابة والإبداع، و اختار التحوّل عن الوجهة، التي يؤمّها كثير من شعراء وكتاب جيله، تجاوزا لمركزية السلطة، بكل تجسّداتها التقليدية، والقوى المكلّفة، با لدفاع عن هذه السلطة، التي تدّعي الأوّلية و الأصالة.

في هذا السياق نجد أنّ أدونيس في استخدامه لأسلوب التّعرية و الحفر في أسباب تراجع الفكرالعربي ، إنّما يبحث عن لغة جديدة لرصد الحقيقة، ورسم أبرز إشكالات الواقع قي مرآة الضميرالعربي الحي،وليس فحسب ، و إنّما الإنساني كذلك، لانّ من شأن هذا الأسلوب، أن يحقّق الوعي لدى الناشئة، باعتبار أنّ الأمل معقود في ناصيتها، والتحوّل يرتجى في مقاصدها، وهو مقصد ارتضاه افلاطون، قديما، في مشروع "الجمهوريه"، و اختياره لطبيعة الناس الذين يحققون هدفه المنشود، إذ كان حرصه على تنمية عقول الناشئة هدفه الأكمل، ولإن كانت علاقة إفلاطون بالشاعر شابها نوع من الرفض وعدم الرضى في ملامحها الأساسية، تجسّدت أساسا في عدم ثقته في شخصية الشاعر (الفنان)، الذي لا يتحمّل مسؤولية كلامه، لما يصدر عنه من عاطفة ووجدان، لا يؤهلانه إلى تصوّر الحقيقة على أكمل وجه وبشكل يقيني، وهو ما يشكل خطرا على الناشئة الناشئة، كما تصور ذلك افلاطون.فقد آمن أدونيس بأنّ الحفر في النّسق الثقافي العربي وتحليل بنيته الدينية، هو سبيل الخلاص، وهو"تكنيكه" المتبع لإزاحة السّتار الكثيف الذي يحول دون رؤية الدروب الموصلة إلى الحقيقة.

١-١ أدونيس ومشكلة الدين :

بحث أدونيس في بنية الدين الإسلامي، فوجدها بنية موغلة في الثّبات، متعلّقة بالأصل؛ أصل يتمظهر أساسا في هذه العربية، لغة الأسلاف، مظهر التفوّق العربي وبراعته، ولغة الوحي، لغة القرآن الكريم المستوعبة لكلّ الحقائق، كما يكشفه الإجماع الحاصل حول هذه المسألة، منذ نزول الوحي إلى يومنا هذا.

يتمظهر هذا الأصل، أيضا، في نموذج القول الشعري العربي القديم، الذي يحيلنا، بحسب رؤية الثقافة السلفية في شقها الإبداعي، على العبقرية الخالصة، والتفرّد المكين، مصدر كل تفرّد، الذي لا تفرّد بعده، حيث أنّ قدر الشاعر العربي، أيّ شاعر عربي، أن يحتذي شكله، وينفث حرارة دلالاته، و إلاّ كان ما يأتيه هو ضرب من البدع والضلال، كما يتحدد هذا الأصل فيما يفسره القول المنسوب للشافعي« كل متكلم من الكتاب والسنة فهو الحقّ، وما سواهما هذيان » وفيما نسب، كذلك، لأبن تيمية «كل ما خالف الكتاب والسنّة فهو باطل قطعا » كما يتمظهر هذا الأصل، على صعيد آخر، فيما اتفقت عليه الجماعة أبا عن جدّ، من أعراف القول والفعل، والتي تناقلتها الأجيال جيلا عبر جيل حتّى، و إن كان أولئك الآباء و الأجداد لا يفقهون شيئا، على حدّ تعبير القرآن الكريم، في قوله تعالى: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ]*(١٧٠).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

من هذا المنطلق، أراد أدونيس أن ينتصر للكلام على حساب اللغة، أن يقول كلمته في حق هذا الموروث العربي، الذي يركن إلى الثّبات والمطلقية، أكثر من ميله إلى ممكنات الإضافة والاستمرار، يقولها انتصارا للفرد، وللوعي، وللرؤية المخالفة، وللحقيقة،« لأنّ الكلام تركيب مغاير جديد، إنّه إبداع صيّغ، وجمل غير معروفة، هو إبداع تابع لشخصية المبدع، وليس للّغة، من حيث هي، ذات معيّنة، تقولها أو تفصح عنها، فهي جماعية، لا تنتمي إلى فرد، وليس هوية فردية، إنّها جاهزة، مسبقا، أما الكلام فيحيل إلى معنى يدلّ على الذات المتكلّمة، فالكلام فردي، وله، حكما، هوية فردية[..] واللّغة هي الثّبات، أمّا الكلام فهو الحركة الدائمة » (٢).

الكلام بهذا المعنى هو المسلك إلى تأسيس مفهوم جديد للحقيقة، التي ظلّت، في منظور أدونيس، مقيدة بضرورات النّظام اللّغوي الذي يقوم على مبدإ النقل المتوارث، إذ كلّ عربّي في هذا المنظور« يسكن في بيت لغوي يسع الكون، هذا البيت هو باللغة السياسية، الاجتماعية، الأمة، فالأمة قوى انفصال عن الطبيعة وارتباط باللّغة، وكلّ انفصال عن الطبيعة من أجل الارتباط باللّغة يؤدي إلى قيام ثقافة نمطية، تكرارية تقوم على القواعد، أي على الأمر والنّهي، وبكلمة: ثقافة واحدة ثابتة تصدر عن الواحد الثابت » (٣)

١-٢ أدونيس وتأصيل الأصول:

إن تأصيل الأصول عند أدونيس من خلال دراسته(الثابت والمتحوّل)، والوقوف على مقولتي الثابت، والمتحرّك واستنطاق ماضي الموروث العربي الإسلامي في ضوء دلالتهما، يمثّل "تكنيك" التّعرية الموضوعية، التي تسعف في تحديد طبيعة الظّاهرة قبل مناقشتها، وهو إجراء منهجي علمي، يقوم على الفرز والتحديد والفصل بين ماهو ثابت ومتغير على صعيد المعاينة والتحليل، يضع اليد على لبّ المشكلة ، لتتعين سبل معالجتها بعد ذلك.

وفق هذا المسلك، فإنّ أدونيس قدّم أسباب حالة التخلّف، التي عرفتها المجتمعات العربية الإسلامية، ليستنبط الحلول الممكنة، للخروج من وضع السبات العميق ، والدّخول في مجرى التاريخ، وهو مبدأ علمي ينصّ، فيما ينص عليه، أنّ معرفة الأسباب يتيح حلول الوضعيات الإشكالية، و الإحالة عل المقدّمات توصل إلى النتائج.

من هذا المنظور، فإنّ أدونيس يرجع في نقده الحضاري للواقع العربي الإسلامي، إلى جملة من المسلّمات الأساسية:

١- الذهنية العربية ذهنية مبنية بناء دينيا، ما يجعل منها ذهنية تركن إلى الثابت، مستغنية عن الدّنيا، متطلّعة إلى الغيب، مطمئنة بأفضليتها عن باقي الذّهنيات الأخرى لسائر الخلائق في الأرض، ممتلكة للحقيقة بموجب النّص الديني، الذي تفضلت به عليها السماء، تعيش يومها في ظلال ذكرى أمسها وكلّ المآثر التي في سجل تراثها ، تمنعها من بناء تصوّر شامل عن المستقبل، والقانون الذي يضبط حركتها في الحياة يستمد روحه

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

من التّواكل والحماسة الشفوية في مقابل الفعل، ومن الأصالة في مقابل المعاصرة و من أسبقية السلف على الخلف في كلّ الأمور، فهو رمز القوة والصّلاح، ما يجعل منه قدوة للخلف، وهو الأصل ، ومن جاء بعده فرع، وهو يمتلك اليقين، ومن خالف نهجه(نهج الجماعة والسلف الصالح) في ضلال وشكّ مريب، وهو الرؤية الجامعة، وصلاح الخلف لن يكون إلاّ في أبعاد هذه الرؤية، التي صاغها منطق الجماعة عن قيمة الحياة، وقيمة الآخرة، وهكذا دواليك، حتى تتضح القاعدة الجوهرية، المترتّبة عن سلم الأفضلية والأحقية، التي تنصّ على أنّ صلاح هذا الجيل لا يتأتىّ إلاّ بما صلح به أوّله، وهو، لعمري،منطق يلغي كل إمكانات التحرّر، والإبداع عن الإنسان العربي في زماننا هذا ويسقط عنه، مسبقا، الأهلية في بناء حياة متطوّرة، وتحصيل عيش كريم، كما لو أنّ التمكين في الأرض، إنما يتحقّق بالتوريث، أو بمحاكاة أساليب الأسلاف في نمط تفكيرهم وأساليب عيشهم بطريقة حرفية، والاحتذاء بأساليبهم في مسيرتهم الحضارية، ورؤيتهم للعالم.

" أرسطو" في كتابه الرائد "فنّ الشعر"، الذي ضمنه ردوده على أستاذه افلاطون، لا سيّما في مفهومه للمحكاة، نقل مفهوم التقليد والاتّباع من سياق ارتباطه بالعام قاصرا اياّه على الشّعر، مؤكدّا أنّ المراد بالمحاكاة، إنّما هو نقل الطبيعة لا كما هي في الواقع، و إنّما على أحسن صورة يمكن أن تكون عليها، ما يجعل من المحاكاة، بوصفها تقليدا، تؤدّي، بدورها، دلالة الابتكار والخلق، أكثر من دلالة التقليد الباهت الذي لا خصوصية فيه، ولا حياة، كما تحدث عنه أفلاطون.

ب- الذّهنية العربية يعوزها التفكير الحي لمجابهة الأزمات، لأنّها لا تحسن قراءة التاريخ والحاضر، فهي ذهنية تقوم على فعل التذكّر لما ما مضى، عالقة في مسالك زمن الطفولة الأولى بالتعبير "الفرويدي"، مسترجعة الحنين إلى الأيام الخوالي، ولعلّ هذا ما جعل أمّة العرب قاصرة على إنتاج فكر جديد، يؤسّس لرؤية تقوم على الرّاهنية والاستمرار، يحركها التساؤل والشّغف إلى معايشة اللّحظة والابتكار، لأنّ قدر المبدع « إمّا ينجز أثرا عظيما ، يكون بذاته منبعا لقيم إنسانية جديدة، و إمّا يعطي نتاجا يحمل أيقاع الحياة، يجيئ مليئا بالاحتمالات، بالإشارات إلى ممكنات جديدة، إلى طرق جديدة » (٤).

ج- الذهنية العربية ذهنية انعزالية، تعوزها النظرة الشمولية في فعل التحوّل، وفي قدرتها على الانجاز، لما ألفته من تعصّب للأصل، الذي ليس شيئا غير ما يصدر عن رؤية دينية للأشياء،كما صاغها القرآن الكريم، والسنة الشريفة، ومصادر أخرى للنّظر والتشريع ولو كان ذلك على حساب مقدراتها التاريخية، ولعل هذه الانعزالية، هي ما جعل الأمّة لا تحسن أدوات القياس، و أنىّ يتأتّى لها ذلك، وهي ترفض الانفتاح على منجزات الآخر وترفض مقايسة ما تمتلكه من موروث بقسطاس ميراث الإنسانية، قصد الوصول إلى مشتركات، و إمكانات للتواصل، وعلى الرّغم من كون القرآن الكريم، وهو كتاب الله لأمّة العرب فيه من الإشارات القويّة، التي تحثّ على التطلّع إلى ما للآخر من مهارات و مكتسبات، ومقدرات لتأسيس تعارف حضاري، إنساني يعود بالفائدة، إن على مستوى تنمية الرؤية المشتركة ، وتحقيق التعارف، إذ يقول تعالى:[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

خَبِيرٌ] (١٣) (**) ومع ذلك فإنّ التاريخ يقدم لنا شواهد عن روح التعصّب، والتنّكر للرأي المخالف في الثقافة العربية، بل أنّ دماء غزيرة، أريقت نتيجة اختلاف في الرؤية، أو عدم اتّفاق حول قضية ما، كلّ هذا جعل الفكر العربي فكرا لا يحسن الحوار، ويفتقر إلى ثقافة التعبير عن ضرورات مقتضى الحال في عالم يقوم على صراع القوى، وتضارب المصالح.

د- الفكر اللاهوتي، بما هو فكر يردّ كلّ الأشياء إلى الله، ويسعى إلى إيجاد تفسيرات لها في ضوء النص الديني، دون إعمال للعقل والتفكير الحرّ، الذي يقوم على التشكيك في مقولة الثوابت من أجل إعادة صياغة العالم وفق رؤية واعية ، في سيّاق تطور الصيرورة التاريخية، وتطوّرأنساق الفكر الإنساني، يعدّ في منظور أدونيس الحاجز الذي يتوجّب تجاوزه، حتى تجد المجتمعات العربية لها مكانا تحت الشمس في عالم التفكيرالحرّ والإبداع، يختلف جذريا عن الجدار الذي أنجزته العقلية العربية حول نفسها.

لا يعدّ ادونيس، المفكّر العربي الوحيد الذي يراهن على مصادرة الأرضية اللاهوتية لبناء أرضية جديدة يعضدها التساؤل الحرّ، وحبّ المعرفة، وفضول الكشف والبحث عن الحقيقة، فهذا محمد بنيس يحدّد مسلك التملّص من دائرة التخلّف التي تتحرك في أرجائها المجتمعات العربية، عبر التحرّر الجذري من الإرث الدّيني، إذ يقول: «إن تفكيك الأرضية اللاهوتية سابق على كلّ نقد، لأنه ينزلنا من السماء إلى الأرض، وقد آن لهذه السماء أن تكفّ عن تغييب جسمنا، وتشطيره إلى نور وظلام، يمين ويسار، خير و شرّ، ملائكة وشياطين، آن لهذا الجسم، أن يحتفل بشهوته، ومتعته، يبدع قيّما أخرى ليست من الضرورة تحديدها مسبقا»(٥).

ه –الفكر العربي يفتقر إلى مشاريع حيّة، بموجبها يعاش الحاضر ويحيّن على صعيد الممارسة، للتفاعل مع زخمه وعلاقاته وتبعاته، و يتمّ التطلّع إلى المستقبل باعتباره الهدف والغاية، اللّذين يسوّغان محتملات المراهنة، وبمقتضاها يتمّ تحيين الماضي وبعثه لمساءلته في سيّاق الحاضر، ومتطلّبات اللّحظة الرّاهنة ، لاستخلاص العبر، ومردّ ذلك لأنّه فكر يقوم على التّابعية للنموذج الفكري العربي القديم، ويقول بالأصالة على حساب المعاصرة، من حيث أنّ الأصل هو مصدر الحقيقة، وهو النموذج الكامل الذي يجب أن يحتذى به في المقاربة والنظر ، والممارسة، لأنّه في المخيال العربي يمثّل أرقى ما يمكن أن يصل إليه العقل العربي، فليس أبدع مما أبدع.

إذا كان تشبّث العقل العربي بالنموذج السلفي يمثل شكلا من أشكال معضلته الكبرى، فإنّ اعتماد هذا العقل على استعارته للمنجزات الغربية، والرّكون إليها دون قراءة واعية محلّلة، فاحصة، تحسن انتقاء ما يفيد، وترك ما لا يفيد لمتطلبات الإنسان العربي في سياق الأزمة، التي يعيشها في شتّى الأصعدة، يمثل أيضا شكلا آخر من عمق الأزمة، لأنّ كلا المظهرين يكشفان عن عدم استقلالية الفكر العربي استقلالا ذاتيا.

هذه وضعية إشكالية لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وهو حال نجد انعكاسه واضحا على الناقد العربي؛ فإمّا نجده، كما قلت سلفا، منخرطا كلية في الموروث، لايرى شيئا يمتّ بصلة إلى الصواب والحقيقة إلا عبر مسلك التراث، مختزلا تاريخ الفكر الإنساني بنظرة حماسية، متعصّبة، فيما أنجزه السلف، وهو موقف يجعله يفوّت كثيرا من الفرص لمساءلة الذات وقراءة الماضي في ضوء معطيات العصر لتأسيس ضوابط الاستمرار والمضي

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

نحوالمستقبل والكمال، وإمّا نجد هذا العقل العربي، مرتبطا شديد الارتباط بمنجزات الغرب، كما لو أنها الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، ملغيا كل إمكانات القراءة والنّقد لهذا المنجز، ومستغنيا به عن أيّ إضافة ممكنة.

يكشف هذا الموقف عن درجة الضعف، وانعدام الثّقة في النفس وعن عقدة النقص إزاء الآخر، فيما ينتجه من معرفة وتطوّر، ودون ريب أنّ هذه الوضعية الإشكالية، التي تميز العقل العربي، هي ما يجعل إمكانية إعداد مشاريع فكرية ذات خصوصية عربية، إسلامية بعيدة المنال، في غياب ممهّدات تقوم على النقد وإتقان القراءة.

٢- ممارسة الخرق والتّجاوز:

تقوم الكتابات الشّعرية والفكرية الأدونيسية على مبد أساسي ، يحدّد اعتناقها لرؤيا الحداثة، وتملّصها من أعباء التراثية ، التي تقوم على المحاكاة، والثبوتية، والتبعية.

يتمثّل هذا المبدأ في فعل الخرق، والتجاوز، لكل المسلّمات الموروثة عن الفكر العربي القديم ، ولكلّ منظومته المفاهيمية، طالما أنّها منظومة تستند على الثبوتية، وتقديس الأصل، ولا شكّ أنّ هذه النّزعة في مقاربات أدونيس، لا سيّما الشّعرية منها، إنّما تأتّى نتيجة انفتاح وعيه على الثّقافة الغربية، وتشبّعه بمقولات الحداثة الغربية، التي تحرّكها روح التجدّد، والابتكاروالتجاوز، ويسكنها هاجس المختلف، ويقودها الوعي الذي يؤمن بالإنسان في طبيعته الفردية، وفي قدرته على إحداث الفارق وتأسيس الجديد

، وصياغة الأسئلة بالكيفية التي تتزامن مع طبيعة راهنه، ومستجدات عصره.

ومعنى هذا، أنّ النّقد الحضاري في منظور أدونيس ، ينطلق أساسا من ضرورة إعادة تثوير التوتّرفي بنية الفهم، و إقامة أسس وعي جديدة ، تستدعي الخروج عن نسق الثقافة والسلطة الأبوبة المعهودة، وتجاوز اللغة التقليدية إلى إبداع لغة جديدة خارقة، متجاوزة، قادرة على خلخلة الفكر المهيمن.

في هذا السياق يستشهد أدونيس بالثورة التي قام بها بعض الشعراء في تاريخ الشعر العربي تجاوزا، لطبيعة الفكر الذي كان سائدا، وتمرّدا على التصوّر القبلي لنمط الحياة ولعلاقة الإنسان بالعالم، فيقدم لنا شعراء ، هم بمثابة النّواة الأولى لمشروع الابتكار، والإبداع في مقابل النمطية التي أسسها الوعي الثبوتي، والفهم المنبثق من سجن اللغة ومنظومة القيم السلفية،إذ يقول:« كان في شعر إمرئ القيس، وطرفة وعروة بن الورد والصعاليك بعامة خميرة صالحة لدفع التحوّل في اتجاه و أقاصي جديدة » (٦).

إنّ الاستغناء عن دفء معطف الأجداد، و مجابهة شتاء عمرنا الحضاري، على ما فيه من قساوة البرد وعصف الريح، ينمي الإدراك بحقيقة الأمر، لأن حقيقة الواقع، و إن كانت مرّة، فهي تمنح متاحا لإعادة ترتيب الأشياء ، وبناء رؤية عن الحاضر والمستقبل، رؤية حقيقية تجيب عن تطلّعات الإنسان ذاته، ابن اللحظة ذاتها، لا الإنسان الذي يعيش حاضره بلحظة غيره، ولأنّ العقل العربي، في منظور أدونيس، نتيجة طبيعية للتديّن الحاصل، ونتيجة لطبيعة البنية الدينية ،التي تقوم على الواحدية،

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والثبوتية، والأصل الواحد، فهو عقل يشتغل في قطيعة عن حاجة الإنسان العربي ومتطلّبات عصره، لانّ« الفكر انبثاق من التجربة، لا هبوطا من الغيب. كذلك، لا تعود السياسة ممارسة باسم الوحي وشكلا للتصور الديني للعالم، و إنما تصبح ممارسة إنسانية تقوم على العقل » (٧).

ومعنى هذا أن عودة الإنسان العربي من جديد إلى مجرى التاريخ ، وسياق صناعة الأحداث، وقراءتها، والمساهمة في توجيهها، مرهون بضرورة الاعتقاد بمبدأ التجربة؛ أي الانغماس في الصراع ذاته، بوصفه ناموس الوجود، و أن يقبل بمقايسة ما لديه من تراث ومقدّرات فكرية حضارية بمقاييس الوجود الذي لا يكف عن الحركة والتجدّد، و أن يدخل في علاقة تزامن مع راهنه، باعتباره الرأس المال الحقيقي لكل مغامرة، جريئة في البحث عن التطور ولاستمرار.

إنّ ركون الذات العربية إلى الدين واكتفائها به مسلكا في الخروج من التيه و بناء المستقبل، لا يمثّل المخرج الحقيقي في منظور أدونيس، لذلك فهو يفضّل الإلحاد، بوصفه دعوة إلى الإيمان بالإنسان، من حيث هو إنسان على التمسّك بالدين، بوصفه طريق الخلاص الأبدي، « فالدين لا يوحّد بين الإنسان والإنسان بل، على العكس، يفرّق بينهما، أما الذي يوحد بينهما فهو العقل، لا بد ، إذن، من إزالة الدين من المجتمع، و إقامة العقل، والإزالة هنا لا تقتصر على الدولة أو الدين العام، بل يجب أن يزال الدين الخاص أيضا، أي دين الفرد ذاته » (٨).

يمكن أن نستنتج مما سبق أنّ إجراء الخرق والتجاوز في مقاربة أدونيس يتلخّص في التحرّر من المعتقد الديني، والإيمان بالإنسان عقيدة، وقدرة على تغيير العالم، ذلك لأنّه محور العالم، وهو صانع الحضارة، إلا

أنّ شكلا من هذا الخرق والتجاوزلكلّ المسلمات القبلية المتراكمة في الذهنية الثقافية، يضعنا أمام إشكالية كبرى، يمكن أن نعبّر عنها بصياغة السؤال الآتي:

إذا ما سلّمنا بضرورة تحرّر الإنسان من الدين، بوصفه سلطة تبقيه مرتبطا بالغيب أكثر من استغراقه في الوجود الذي من حوله، و إذا ما سلّمنا، جدلا، أنّ هذا من شأنه أن يعمّق وعيه بالإمكانات التي تمكّنه من استيعاب جدل الطبيعة، و الإنسان، فهل يمكن لهذا الإنسان ذاته أن يستغني عن الأسئلة الكبرى، التي تبقى عالقة في ذهنه عن شساعة هذا العالم الذي من حوله، والذي لم يكتشف منه في رحلة بحثه الطويلة إلاّ القليل، ثم هل يجد إجابة عن إحساسه بالنقص، الذي يشعر به، على الأقل بوصفه كائنا آيلا إلى الزوال، في سياق تجرّده من الغيب، ومن الاستمساك بقوة الغيب، و اعتناقه للعقل؟

أليس الإلحاد، و إسقاط أي إمكانية لوجود الله، هو ذاته إيمان وتديّن بطريقة أخرى، طالما أنه يمثّل اعتقادا، حينما يتبنّى هذا النّوع من الخطاب، ويعبّر عن هذا الإيمان المطلق بعدم وجود قوة غيبية تتحكّم في شؤون الكون؟ أو ليست عملية النّفي ذاتها لوجود (الله)، هي إقرار أكيد بوجوده، إذ لا يعقل أن ننفي شيئا غير موجود في الأصل، وإلا كان هذا النفي نوعا من العبث المنطقي، فالنّفي، بهذا المعنى، إنّما هومسلك للإثبات.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثانيا/ مستلزمات التحوّل في المشروع النقدي الحضاري عند أدونيس:

١- عقلنة الخطاب، وإثارة الجدل:

يربط أدونيس التحوّل من وضعية السبات العميق والركود الآسن الذي يطبع واقع المجتمعات العربية في شتى الأصعدة بضرورة إعادة الاعتبار لدور العقل، ولدور الجدل، لأنّهما المسلك الوحيد لإعادة صياغة جديدة لطبيعة العلاقات القائمة بين جملة من الثنائيات، في الخطاب الثقافي العربي، منذ عصر الجاهلية إلى يومنا هذا، و إن تعدّدت المسمّيات، فإنّ معاني هذه المصطلحات هي نفسها من حيث المعنى:(الأمس، اليوم) ، (الثّابت، المتغيّر)، (السلف، الخلف) ، (الجوهر، الهامش) ،(القديم الجديد)، (القلب، الهامش)، (النص، الرأي)، (الأصل، الفرع)،(الأوائل، التابعون)،(الحياة، الموت)،(الأصيل، المحدث)..وغيرها.

كل هذه المسمّيات في تاريخ المدوّنة التراثية، والحديثة في تاريخ الفكرالعربي تقوم، أساسا ، على التنافر، التضاد، التناقض، القطيعة، ومعنى هذا، أنّ مسيرة الفكر العربي، بدئيا، قامت على الإلغاء والإقصاء، وهوما ترك أثرا سيئا في مسلك تراكم المعرفة في تاريخ المجتمعات العربية، إذ لم تكن المعرفة استجابة لحاجة الإنسان، بوصفها قوة تتغيّا تحسين الواقع، والتطلّع إلى المستقبل، وإنّما كانت هذه المعرفة تستجيب لما يخدم الصراع، وينمّي الخلاف ، لا إلى بلورة المشترك والمضي قدما.

بدئيا، هي معرفة تؤسّس للنزاع، للصراع، للحرب، للقطيعة، لا للسّلم، والانسجام والأمن ، والاستمرارية.

يستخلص أدونيس من حقيقة هذا الواقع أنّ اختيار منحى العقلانية في استيعاب التراث، ومناقشته في سياق جدلي مع مستجدات الحاضر هو المخرج من دائرة الأزمة التي يعرفها العقل العربي اليوم، بل إنّ احترام خصوصية الذّات العربية و خصوصية العصر الذي تحيا فيه، يمثل منطلقا نحو التطوّر، وتجاوزا لمنطق الأبوة الموروث، ويعدّ ضرورة لا بد منها،« مما يستدعي الإطاحة بالخطاب الأبوي الذي يدّعي امتلاك الحقيقة الكاملة، والإعلان أنّ الحقيقة ليست ملكا لأحد، بل هي إجماع في سياق تاريخي متغيّر وملك للجميع » (٩).

إنّ التركيز على العقل والمعرفة، لإحداث القطيعة مع الواقع المتعفّن، من ناحية، ودحض مقولات الفكر التراثي لم تكن منحى أدونيسيا محضا، ففي قلب المدونة التراثية، نجد أصواتا، لا تتردّد في المطالبة بعقلنة الخطاب، بوصفه الأسلوب الفعال في إحداث التغيير، والفكرالاعتزالي(نسبة إلى المعتزلة)، إنّما قام أساسا على العقل، بل إن المعتزلة يمثّلون المدرسة العقلية في تاريخ الفكر العربي، إذ سعت إلى عقلنة الدين الاسلامي، في سياق ابتكار قراءة جديدة للوحي، وللمسؤولية، والمجتمع، والأمة، والمستقبل.

فخاصية العقل، كان موضع التميّز بين الأوائل والتّابعين، وتابعي التابعين، حيث يرى أبو القاسم الصقلي في الأنوار أن أكثر الناس استيعابا لنص القرآن الكريم، هم الأكثر استخداما للعقل، فيقول: « كان أخصّ الناس بفهم علم كتاب الله وشرح معرفة السنة، وعمل الرسول أهل القرن الأول، لأنهم أفضل الناس عقلا و أوسعهم علما، ثم جاء القرن الثاني، فكانوا أعقل الناس وأعلمهم بعد الصحابة بمعاني آي الكتاب والعمل بالاقتداء وفهم ما

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

شرحه الصحابة من البيان، غير أنّ الإيثار الذي خصّوا به الصحابة رقّ في التابعين وكذلك الزّهد في الحلال، ثمّ جاء القرن الثالث، فذهب أكثر أهل العلم،وقلّ فيهم الخوف والرجاء والصبر والشكر، وكثر فيهم الخوض والجدل والخصومة والمراء، وصارت الحقيقة خصوصا والجهالة عموما»(١٠) .

ما يحيلنا عليه هذا المقتبس، أنّ العقل كان أداة الفهم عند السلف، في تعاملهم مع النص، إلاّ أنّ مستوى الفهم والتحليل كان يقلّ تدريجيا عبر الأعصر المتعاقبة في تاريخ المجتمع الإسلامي، بسبب قلّة الإيثار والزهد في الحلال، على حدّ تعليل أبي القاسم الصقلي .

لكن يبدو أنّ سبب تراجع العقلانية في الأخذ بالنّص، مردّها التّبعية، التي نتجت عن الثّقة المطلقة في صحة القراءة والفهم المتشكلين في القرن الأول من تاريخ المجتمع الإسلامي، ما أدى إلى تراجع المقاربة العقلية، وغلبة النزعة التقليدية، التي جعلت من فهم الجيل الأول للنص، ولطريقته في فهم العالم أصلا، ونموذجا، لا يمكن تجاوزه.

٢- امتلاك الرؤيا:

محاولات النّهضة في تاريخ الفكر العربي، ظلت قاصرة عن تحقيق الهدف المنشود، في تغيير الواقع إلى واقع أفضل، وفي بناء إنسان قادر على إيجاد أجوبة شافية عن أسئلة الراهن الذي يعيشه، وفي تأسيس منجزات تكتسب تطورها وتنمّي مردودها النّوعي بشكل تلقائي في مناخ الحريّة، والديموقراطية، والمعرفة، وهي أهداف أيّ نهضة بشرية، حينما تتّكئ على مرجعيات أصيلة، و تنطلق من رؤية واعية للحاضر والمستقبل، رؤية تجعل أولى أولوياتها تطوير الإنسان، وبنائه حضاريا.

في كل طروحات أدونيس في دراسته" الثّابت والمتحوّل-بحث في الإبداع والإتباع عند العرب-" يظهر لبّ مشكلة الإنسان العربي و مشاريعه النهضوية، إذ كل محاولات التحديث، التي بذلت تتّصف بافتقادها لرؤية شمولية لطبيعة المشكلة، التي تعانيها المجتمعات العربية، وقصارى الجهد المبذول في سبيل محاولات النّهوض، إنّما هو من قبيل محاولات يائسة للإبقاء الأمر كما هو عليه، ومن قبيل المحافظة على أقلّ ما يمكن أن يكون، للمحافظة على أقلّ شكل ممكن للحياة، وعلى أقل صورة ممكنة للواقع، بل أنّ جلّ المحاولات المبذولة في المشاريع النهضوية العربية، إنّما هي، في واقع الأمر، إعادة ترتيب للمشكلات في سيّاق الأزمة الشاملة، التي تعاني منها معظم المجتمعات العربية، وفي كثير من الأحيان، تندرج هذه المحاولات في نطاق ترقيع الأمور وهي في مراحلها الأخيرة من التأزّم.

مثل هذا السّلوك في التعامل مع الأزمة ، يكشف عن ذهنية لا تقوم على تصوّر شامل لمتطلّبات الرّاهن ومقتضيات المستقبل، ولعلّ ذلك يعود أساسا إلى أنّ ثقافة الإنسان العربي، في أعمق مستوياتها، هي ثقافة شفوية، تؤسّس للارتجال على حساب الفعل، الذي هو محرك التجربة، ولربّما هذا ما جعل توصيفا لا زال عالقا بالشخصية السلوكية للإنسان العربي إلى يومنا هذا، إذ يشاع " إنّ العرب يقولون ما لا يفعلون" و "أنّ العرب أتّفقوا على أن لا يتّفقوا"، فالافتقار إلى ثقافة التجريب، وما يترتّب عنه من الخطأ والصواب، يجعل من دقّة النظر، وبناء الرؤيا الشاملة عن القضايا الإشكالية أمرا ليس متحققا، لذلك فإنّ أدونيس، على صعيد الإبداع الشعري، يرى أنّ الخطيئة تنمّي الكفاءة الإبداعية، وتحرّر الذات، بما تتيحه من متاح للكشف والتجريب، بعيدا عن سلطة الرقيب الديني، والاجتماعي،

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وتصقل المهارات لدى الشاعر، فهذا« أبو نواس شاعر الخطيئة، لأنّه شاعر الحريّة، فحيث تغلق أبواب الحرية تصبح الخطيئة مقدسة » (١١) . ولعل هذا ما عناه الفيلسوف "نيتشة" حين قال:" لا مناص من الشّر" من منطلق أنّ الخطيئة تفتح أبواب الوعي عن عوالم، ما كان للإنسان أن ينفتح عليها وعيه، لولا تجربة الخطيئة،« إنّ الإنسان بحاجة إلى الأسوء من أجل خيره الأكبر، و أنّ الشرّ الأكبر هو طاقته الكبرى، والحجر الأكثر صلابة بالنسبة للمبدع الأرقى، وأنه على الإنسان أن يغدو أفضل وأكثر شرّا » (١٢) فهي تمدّ الإنسان بالطّاقة من أجل المضي قدما، لذلك عدّ في كثير من ثقافات الشعوب أنّ الخطأ طريق إلى الصواب، ومسلك المعرفة الحقّة.

في قصيدة " السديم" من ديوان " أوراق الريح" وعبر حديث ثلاثة مجانين عن مواقفهم في الحياة، نجد ما يبرّر أصالة الخطيئة، وحقيقة علاقتها بمعرفة الطريق، إذ يقول ادونيس:

« من محال الكون أن تمحو
في الكون الخطيئة
فهي للخلق بناء، ورداء
وهي بالحقّ مليئة»
....
«و من الباطل أن تقصى عن الباطل أرض
فهو في العالم فرض » (١٣)

إنّ إعادة بناء منطق الأشياء، في كثير من الأحيان، إنّما يتأتّى عبر تعلّم الإنسان من أخطائه، فلا عجب أن نجد في الإسلام الإقرار بطبيعية الخطأ في المجتمع الإنساني، وبمكانة المخطئ في منظار الشريعة، حينما يلتمس طريقه إلى الحق عبر مسالك الخطيئة، ولعل في الحديث الشريف «كلّ بني آدم خطّاء، وخير الخطائين التوّابون » (١٤) إشارة إلى هذا المعنى.

الرؤيا بوصفها معرفة حدسية، تجعل الإنسان أكثر تعلّقا بهدفه، وأكثر قوّة، وصبرا على تجاوز المحن والمعيقات، لأنّ الغاية التي تؤطّرها رؤية هادفة، و خيال مبدع يسترخص الإنسان من أجلها كلّ ما دونها في سبيل تحققّها، والثقافة العربية، بوصفها تراكما لذهنية تواكلية، ترجع كل قضاياها المصيرية إلى الغيب، مسوّغة بمنطق القضاء والقدر نكساتها وهزائمها، غير قادرة على خلق رؤيا محركة، يحركها الشغف في تتبّع المجهول ، واكتشاف ما يمكن اكتشافه لإرواء عطش النّفس التواقة إلى البحث، والاستقصاء.

في منظور أدونيس أن حركة التطوّر في المجتمعات العربية يحكمها قانون السلف؛ أي الاحتكام إلى سقف ما وصل إليه الأجداد من حركة وفهم في مسلك التاريخ، وجعله مرجعية لحركة الحياة، والحق أنّ ما حقّقه السلف من إنجاز ، إنّما يتواءم ويتجانس مع طبيعة واقعهم، ورهانات عصرهم التي، بكل تأكيد، تختلف عن واقع المجتمعات العربية اليوم، وعن طبيعة الإشكالات المطروحة أمامهم، ولعلّ تشبّث الإنسان العربي بماضيه ، وذوبان شخصيته فيه، يعبّر عنه قول أبي العلاء بن عمر:« إنّما نحن، في من مضى، كبقل في أصول نخل طوال. » (١٥)

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

٣- الحرية:

الحريّة في ثقافة أدونيس النّقدية قوّة ذاتية، لا تعطى، وهي محرّك كلّ تحوّل، تنعكس على الروح ، على الذات، على اللغة، على الرؤيا، فهي الرؤيا المنبثقة من رحم العدم، وهي تمثل لبّ الإشكال في تاريخ الإنسان العربي، قبل الإسلام وبعده، و باستثناء بعض الفترات في تاريخ الإنسان العربي الثقافي، التي يمكن وصفها بالتحرّر (الشعراء الصعاليك)(التجديد الشعري العربي عند أبي تمام)،(الفكر الاعتزالي)، فإن تاريخ الثقافة العربية، هو تاريخ تابعية، واحتذاء، تاريخ تكريس النموذج الأوحد، الأصل على حساب الفرع، تاريخ النّص، في مقابل قراءة النص، تاريخ الجماعة ، وما اتفّقت عليه في مقابل الفرد وقدرته على إعادة صياغة منطق الجماعة، تاريخ السلف في مقابل الخلف، وبالجملة فإنّ مقولة الحريّة بمعناها الفلسفي الدقيق لم تتبلور بالكيفية التي تجعلها علامة أساسية في المساق التاريخي للإنسان العربي.

يكتشف الإنسان عالمه باللّغة، وهو كائن يسكن اللغة بتعبير"هيدجر"، واللغة حاملة للفكر، ومعنى هذا أنّ حريّة اللّغة، مسلك آمن لإيصال الفكر المتحرّر، وفي منظور أدونيس، لا سيّما، في دراسته" الثابت والمتحوّل بحث في الإبداع والاتباع عند العرب" يتحدّد مفهوم حرية اللغة في قدرتها على التجاوز، وفي خرق مستويات الدلالة في اللغة التقليدية، في قدرتها على تنوير الوعي وتثويره في الوقت نفسه، في قدرتها على إعادة صياغة أسئلة مفهومة، متزامنة مع طبيعة اللّحظة الراهنة، مستوعبة للقلق والتوتّر، في قدرتها على امتطاء المستحيل، وتحويله إلى دلالات ممكنة، في قدرتها على التكثّر، أن تكون متعدّدة، خصبة، أن تنتج العلامات الدالة على الطريق،

في قدرتها أن تكون غامضة وواضحة في الوقت ذاته؛ أن تكون الكلّ الإنساني، أن تكون قادرة على بناء هويّة الشاعر، هوية الإنسان، أن تكون ذات طبيعة استفهامية، ابتكارية غير استرجاعية، متفرّدة غير تكرارية.

اللغة المتحرّرة ، هنا، في هذا السياق هي اللّغة التي لا تطابق بين الدال والمدلول، لغة تستوعب منطق المنبثق، الجديد، المحتمل، المستمر، لغة لا تقوم على نهائية المعنى، ومحدوديته، لأن « أعمالنا، أفكارنا تفسيراتنا كلّها لا نهائية وغير حاسمة، اللانهائي وغير الحاسم يصنعان عالمنا » (١٦).

اللغة بهذا التحديد، هو ما يدعو إليه أدونيس، ويعوّل على كفاءتها، وطاقتها الحيّة، ، إن على صعيد الإبداع أو الفكر، في تغيير منظومة القيّم القديمة، المتمظهرة في موقف السلف من اللّغة وفي وظيفتها، وهو موقف ينبع إمّا من نظرة تقديس للغة الخطاب الجاهلي، وإمّا من قناعة دينية محضة، تجعل من وظيفة اللّغة الأساسية وظيفية أخلاقية محضة، لا تجاوز نسق منظومة القيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام.

الحرية اللغوية، جزء لا يتجزأ من حرية الإنسان، فهي أداة التشكيك، والنقد ، والرفض، والتجاوز، والخرق لما أتفق عليه من قوانين الصيّاغة والخطاب، أن يمتلك الإنسان حرية لغوية، معناه أن ينتج خطابا جديدا، غير مكرّر، أن يقول اللحظة، وبكلمة موجزة أن يؤسس خطابا حيّا.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أدونيس في نقده الحضاري للمجتمعات العربية، إنّما يركز على ضرورة تبنّي لغة جديدة، لا تتشبّث بالأرض ولا تنبع من السماء، و إنّما هي لغة تشقّ ممرا ثالثا ، يصنع الانسجام بين الأرض والسماء؛ تعرب عن واقع الإنسان ولا تتجاوزه، ولكن وهي تؤدي هذا الدّور، فهي تفتح وعيه على الأفق الرحب، على الغيب، على المستقبل، وهو إذ يطالب بذلك، فهو يدعو إلى فكر حداثي، فكر« يمثل نزعة نقدية جذرية، لم تشهد الفلسفة الأوروبية مثلها منذ" بوجينيس" والفلاسفة الحواريين، نزعة تشكّك في كل شيئ، بدءا بالتّراث الفكري الأوروبي، وصولا إلى الحضارة الغربية القائمة بكليّتها » (١٧).

ثالثا- الأداة المصطلحية في نقد أدونيس:

يمارس أدونيس خطابه النقدي، بأدوات مصطلحية، متوغلة و أصيلة في الخطاب الحداثي وما بعد الحداثي الغربي، وهو إذ يطرح فكرة تحطيم البنية اللاهوتية في المجتمعات العربية، ينقلنا إلى فكرة موت الإله عند "نيتشة" وما ترتب عنه في تاريخ الفكر الغربي من تحويل النظر إلى الواقع وإلى الإنسان بوصفه المشكلة الكبرى، ما أدى إلى الاهتمام بالبحث في العلوم الإنسانية، وجعله غاية استراتيجية في الثقافة الغربية، بوصفها المسلك العلمي لمقاربة ظاهرة الإنسان، ومعالجة أهم إشكالياته وأداة للقضاء على الدجل الديني ، وكما كان موت الإله في الفلسفة الغربية بمثابة إعادة الاعتبار إلى الإنسان من خلال عودته إلى ذاته، فإن أدونيس يسعى إلى إعادة الإنسان العربي إلى ذاته، وجعله ينظر من حوله، حتى يتبيّن وضعه في مجرى التاريخ، والمسلك إزاء هذه الغاية ، يتمثل في خلخلة الأرضية اللاهوتية التي ثبّتت زاوية النظر والتفكير لدى الإنسان العربي في اتجاه السماء، باعتبارها مصدر الحقيقة المطلقة، ومصدر الوحي الذي اكتمل، محولة نظره عن واقعه، وعن المستقبل، وعن موقعه في مجرى التاريخ.

إنّ ذهنية العربي تشتغل ، في منظور أدونيس، بموجب مسلّمة عقلية مؤداها أن« المعاني الصحيحة ثابتة في القرآن والسنّة، فهي الأصول الثابتة، والمعاني الصحيحة ثابتة في الشعر القديم، ولولا ذاك، لما أمكن اتخاذه حجة ودليلا، ولهذا ما لا أصل له في القرآن والسنة باطل في الدين، وما لا أصل له في الجاهلية، باطل هو أيضا في الشعر » (١٨).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ويترتبّ عن هذا الحال، وجوب دحض هذه الخلفية الدينية، باعتبارها مصدر المشكلة، وجوهر الأزمة في تاريخ العقل العربي، ولعلّ هذا ما جعل مقولة موت الإله عند" نيتشة" تستعار في طروحات أدونيس، ربما لاقتناعه بأن الشّروط التي تحررّ بموجبها الإنسان الغربي من سلطة الدين المسيحي، ومن مقولات الكنيسة في حقبة القرون الوسطى، يمكن أن تكون صالحة لتحرّر العقل العربي من الفكرالديني الأحادي، ومن أثر الثقافة القديمة(الشعر الجاهلي) القابعة في اللاوعي العربي، باعتبار أنّ« الجاهلية شرع أدبي، وكما أنّه إذا تعارض الشرع والعقل، أي الإبداع وجب تقديم الشرع، فإنّه يجب تقديم الشّعر الجاهلي على الشعر الذي يأتي بعده، أيّا كان، و أيا كان زمانه ومكانه » (١٩) .

في ضوء مصطلح موت الإله، تنبجس جملة من المصطلحات المفتاحية التي يشتغل بموجبها خطاب أدونيس النقدي، لعلّ أهمّها:

الصياغة: و تعني أنّ المنحى الثبوتي يقوم أساسا على إعادة صياغة الشكل الذي يكون امتدادا للأول.

الاستعادة: تمثل أسلوب وغاية المنحى الثبوتي في تعامله على صعيد الفن(الشعر) ، على صعيد الفكر، الفقه، الاجتهاد، وملخص دلالة هذا المصطلح، أن ليس ثمّة أبدع مما أبدع السلف الصالح.

التكرارية: مصطلح يحيل على صفة النشاط الذي يميز المنحى الثبوتي، إذ أن سقف الغاية عند هذا الاتجاه أن يكرر ، ويعيد لحظة السلف، بوصفه القدوة المثلى التي يتوجب الاقتداء بها في كل شيئ، لما تمثّله من إرادة إلهية .

الاتباعية: تدلّ في سياق الخطاب النقدي الأدونيسي، مسلك الصالحين، والتابعين، وتابعي التابعين، وهي بذلك، تدل على النهج لبلوغ الغاية.

الوصل: يحيل هذا المصطلح في خطاب أدونيس، على أهم ميزة أساسية في منحى الثبات وهو تعلّق الذهنية العربية بالنموذج الأصلي.

الواحدية: القراءة المطابقة لدلالة النص الأصلي، والفهم الأوحد للشرع .

أما على صعيد منحى التحوّل، فيمكننا أن نستشف جملة من المصطلحات تؤطّر خطاب أدونيس ضمن سياق الفكر النقدي الحداثي، لعلّ أهم هذه المصطلحات:

الفصل : يحيل على دلالة التجاوز

التحوّل : يدل على التطور، والتحرّر من وضع التابعية إلى وضع المبادرة ، والاكتشاف.

نستخلص مما سبق أنّ خطاب أدونيس النقدي يستهدف، تحرير العقل العربي من تبعيته للخطاب الديني، القائم على مسلّمات ثابتة، يتوارثها الخلف عن السلف، بنوع من التسليم الفكري، يعيق صياغة مشاريع نهضوية، تعيد للإنسان كرامته، ومعناه ، المرتبط بالحركة والبحث والاستقصاء.

لبّ الإشكالية المطروحة في راهن الإنسان العربي تتمثل في طبيعة العلاقة بين الأصل والفرع، بين الأصالة والمعاصرة، وهي علاقة قائمة على التضاد والتناقض، لا على الجدل والتفاعل، من منطلق أنّ الأصالة ذات

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

منحى ثبوتي، والمعاصرة ذات منحى تحوّلي، فهما قوّتان متناقضتان، تعيقان حركة التقدم نحو المستقبل، ما يجعل من أسلوب فك الارتباط ضرورة منهجية للانطلاق.

الموروث العربي يسوّغ العنف، من منطلق أنه يمثّل الحقّ الذي يتطابق مع الإرادة الإلاهية، ويترتّب عن ذلك أن أيّ شكل من أشكال المعارضة التي تقف في وجهه، تمثّل خطرا على إرادة الله يستلزم محاربتها.

التحوّل يستدعي الشك، والبحث ، والتساؤل، ومعنى ذلك ، أن خروج الإنسان العربي من التيه،لا يتأتى إلا بإعادة النّظر في طبيعة النّسق الثقافي الذي يحكمه، يتفتيت كل جزئياته، و إعادة بنائها في ضوء أسئلة الراهن ومتطلّباته، باعتباره هو الفضاء الذي يحدّد الهوية الحقيقة للإنسان ، لأن الإنسان محسوب على حاضره، لا على ماضيه.

الارتداد، صفة الفكرالعربي، وطبيعة الدّافع الذي يشتغل بموجبه، وهو ميزة لا تقود العقل إلى المستقبل في اتجاه ما يجهله، بقدر ما يقوده إلى الماضي لاستعادته.

الإحالات والهوامش:

(*)البقرة، الآية: ١٧٠

(**):الحجرات:١٣

(١): هشام شرابي، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، ص: ٩٣

(٢):أدونيس، الثابت والمتحوّل، بحث في الإبداع والإتباع عند العرب ، الجزء الأول، دار الساقي،ط٧، ١٩٩٤ص: ١٠٧.

(٣):نفسه، ص: ١٥٢

(٤): خالدة سعيد، حركية الإبداع، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار العودة،ط٢ ، ١٩٨٢ ،ص:٤٠

(٥): محمد بنيس ، الاسم العربي الجريح، بيروت: دار العودة، ١٩٨٠، ص: ٧-٩

(٦): أدونييس، الثابت والمتحوّل، بحث في الإبداع و الإتباع عند العرب،.ص: ١٤٤

(٧):نفسه، ص:١٢٩

(٨): نفسه، ص: ١٣١

(٩): هشام شرابي، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، ص: ٩٧

(١٠): أبو القاسم عماد الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكري الصقلي المالكي، الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار، ت: أحمد فريد المزيدي ،دار الكتاب العلمية، بيروت لبنان ١٩٧١،ص: ١٩٧

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

(١١):أدونيس، مقدمة الشعر العربي، دار العودة للنشر،ط٤ ،١٩٨٣ص: ٥٢

(١٢):فريدريتش نيتشة، "هكذا تكلم زرادشت"، ترجمة عن الألمانية، عليم صباح، ص: ٤١٢

(١٣): أدونيس الآثار الكاملة، المجلد الأول، ص: ٢٦٣

(١٤): حديث ضعيف

ـ رواه الترمذي (٢٤٩٩) .وابن ماجه (٤٢٥١) . والدارمي (٢٧٣٠) . وأحمد في (المسند) (١٩٨/٣) وفي (الزهد) (ص٩٦) .وعبد بن حميد في (المنتخب) (١١٩٧ تحقيقي) وابن أبي شيبة في (المصنف) (٦٢/٧) .وأبو يعلى (٢٩٢٢) .والحاكم (٢٤٤/٤) والروياني في (مسنده) (١٣٦٦) .والبيهقى في (الشعب) (٤٢٠/٥). وابن حبان في (المجروحين) (١١١/٢) .وابن عدى في (الكامل) (١٨٥٠/٥) .والمزي في (تهذيب الكمال) (١٣١/٢١) .والشجري في " الأمالى " (١٩٨/١) .

(١٥): الخطيب البغدادي، موضح أوهام الجمع والتفريق، (١٣-١/١٢)، دار المعرفة ، بيروت.

(16) : Ihab Hassan « pluralism Postmodern Perspective» Critical Incuiry, n 12 (Spring(1)1986,pp :503-520

(١٧) : هشام شرابي، النقد الحضاري للمجتمعات العربية، في نهاية القرن العشرين، ص: ٩٥

(١٨) : أدونيس، الثابت والمتحوّل، بحث في الإبداع و الإتباع عند العرب،.ص:١٠٩

(١٩) : نفسه، ص:١٠٨

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــوع	الصفحة
١.	ملخص	٣٩٦٥
٢.	Abstract	٣٩٦٦
٣.	توطئة:	٣٩٦٧
٤.	أدونيس ومعركة المفاهيم:	٣٩٦٩
٥.	أوّلا- أساسيات النّقد الحضاري في مشروع أدونيس النّقدي:	٣٩٧٢
٦.	١- التّعرية وفضح النّسق الثّقافي الدّيني:	٣٩٧٢
٧.	١-١ أدونيس ومشكلة الدين:	٣٩٧٥
٨.	١-٢ أدونيس وتأصيل الأصول:	٣٩٧٧
٩.	٢- ممارسة الخرق والتّجاوز:	٣٩٨٢
١٠.	ثانيا/ مستلزمات التحوّل في المشروع النقدي الحضاري عند أدونيس:	٣٩٨٦
١١.	١- عقلنة الخطاب، وإثارة الجدل:	٣٩٨٦
١٢.	٢- امتلاك الرؤيا:	٣٩٨٨
١٣.	٣- الحرية:	٣٩٩٢
١٤.	ثالثا- الأداة المصطلحية في تقد أدونيس:	٣٩٩٥
١٥.	الإحالات والهوامش:	٣٩٩٩
١٦.	فهرس الموضوعات	٤٠٠١

بحمد الله تم